مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

نظرية المعرفة في ‹إتيقا› سبينوزا

تأليف:
روبير ميزرحي

ترجمة:
حمادي أنوار

2024

www.mominoun.com

- **ترجمة**
- **قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية**
- 05 أبريل 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

نظرية المعرفة في ‹إتيقا› سبينوزا[1]

تأليف: **روبير ميزرحي**
ترجمة: **حمادي أنوار**

1 - Misrahi, Robert, ***«Connaissance»,*** in: *100 Mots sur l'Ethique de Spinoza*, Editions Les Empêcheurs de penser en rond/ Le Seuil, Paris (2005). p-p: 99- 105

إن مشروع سبينوزا الإتيقي، المتمثل في بلوغ «خيرٍ حقيقي» يكون هو السعادة والحرية، مشروط في مجمله بنظريته في المعرفة. إن هذه المعرفةً هي وحدها قادرة على أن تجعل المسار المؤدي إلى هذا الهدف فعَّالًا.

فالمعرفة (وليس الاعتقاد أو الخيال) هي، فعلًا، ما يُتيح تأسيسَ وحدة العالَم وتماهي «الإله» مع «الطبيعة» (الأنطولوجيا)، وهي -أي المعرفة- (وليس الإرادة) هي ما يسمح بالتحكم في الرغبة والانفعالات، والانتصار على العبودية، كما أنها تتيح بلوغ الحرية الحقيقية (الأنثربولوجيا والإتيقا)، انظر مثلًا: (سبينوزا، **الإتيقا**، القسم الخامس، القضية 20، التعليق). وأخيرًا، إن المعرفة (وليس الفناء الصوفي) هي ما يُخَوِّلُ وُلُوجَ تجربة الوجود وبلوغ الغبطة (الحكمة).

لهذا السبب، من المهم أن نحدد جيّدًا مكانة نظرية المعرفة هذه، وأن نفهمها على نحو أفضل: إنها ليست ذلك النشاط الإلزامي الذي يقوم به فيلسوفٌ في القرن السابع عشر، بل هي تشكيلٌ ووصفٌ لأداة التحرر الوحيدة التي هي في مُكنَتنا.

لا شك أن هذا يضعنا في حلقة، لكنها حلقة خصبة (ليست مفرغة): إن الوصف العقلاني للعالم والإنسان هو ما يتيح المرور إلى تأسيس نظرية المعرفة (في القسم الثاني من كتاب ‹‹الإتيقا››)، لكن هذه المعرفة نفسها هي التي تصف هذا العالَم وهذا الإنسان، كما تصف نفسها هي أيضًا.

لنتحدث في الأخير إذن عما هو هذا المذهب السبينوزي بخصوص المعرفة.

يحدد سبينوزا بدايةً مجال هذه المعرفة وشرط إمكانيتها. تتم المعرفة بواسطة تصورات (مفاهيم) (سبينوزا، **الإتيقا**، القسم الثاني، التعريف الثالث): هذه الأخيرة ليست كرسومات صامتة في لوحةٍ ما (سبينوزا، **الإتيقا**، القسم الثاني، القضية 43، التعليق). إن هذه الأفعال عبارة عن أفكارٍ تتضمن بذاتها إثباتًا (هو الإثبات الذي يحدد بشكل دقيق مفهومًا معطى).

لكن الفكرة هي أيضًا عبارة عن وعي؛ أي إنها وعي بالذات: «إن من لديه فكرة صحيحة يعرف، في الوقت نفسه، أن لديه فكرة صحيحة، ولا يمكنه أن يشك في حقيقة معرفته» (سبينوزا، **الإتيقا**، القسم الثاني، القضية 43). الفكرة الصحيحة تكون «متطابقة»، وتقدم مجموع التحديدات الخاصة بموضوعها، كما أنها تندرج في السلسلة الضرورية للأفكار الصحيحة.

ليست المعرفة إذن ممارسة خاصة بملكة ما ستكون هي العقل، بل هي النشاط الواعي والتصوري (المفاهيمي) للنفس البشرية بما هي كذلك. معلوم أن النفس هي فكرة الجسد ***idea***

corporis: إنها بذاتها إمكانٌ للوعي والمفهمة. ويمكنها دائمًا أن تمر من فكرة (مصحوبة بفكرة ذاتها) قد تكون غير متطابقة إلى فكرة قد تكون متطابقة.

تبسيطًا للمسألة، لنقل مع سبينوزا (في كتابه ‹‹رسالة في إصلاح العقل››) إن منهج الفلسفة الأفضل سيكون هو «المنهج التفكُّري»؛ بمعنى أولًا وصفُ الفكرة المتخذة بوصفها موضوعه الخاص؛ أي بما هي «فكرة الفكرة» (*idea ideæ*)، وبعد ذلك تأسيس نسق منسجم من الأفكار التفكُّرية. إن امتداد نسق هذه الأفكار هو تحديدًا العقل. يستعمل هذا العقل «معانٍ مشتركة» ومفاهيم كلية («ترنسندنتالية») نابعة من التجربة ومن مقارنة الأجسام.

بوسعنا الآن أن نشرعَ في وصف أدق للصيغ المتنوعة للمعرفة؛ أي الطرائق المتنوعة للارتباط بالعالَم لأجل فهم الطبيعة بواسطة «المعاني الكلية» (سبينوزا، **الإتيقا**، القسم الثاني، القضية 40، التعليق الثاني).

يميز سبينوزا بين ثلاثة أجناس من المعرفة.

إن الجنس الأول من المعرفة هو تلك المعرفة الأمبريقية والحسية: تربط هذه المعرفة بين الانطباعات «المبتورة والغامضة» التي تمنحها لنا الحواس عن الأشياء الجزئية؛ إنها فعلًا «السبب الوحيد للخطأ»؛ ما دامت معرفة تتم بواسطة «الخيال»، وعن طريق الإحساس الجزئي ومن خلال «القيل والقال». إنها معرفة سلبية ومكرورة، وهي حقًّا ليست إلا مظهرًا للمعرفة كما أنها تظل منبعًا لجميع الأوهام.

لنلاحظ أن نقد النزعة الأمبريقية (سبينوزا، **الإتيقا**، القسم الثاني، القضية 49، التعليق) لا يستلزم استبعادًا للجسد: للنفس مجال للفعل بقدر ما هو أوسع من جسدها، فإن له الكثير من الخصائص المشتركة مع الأجسام الأخرى (سبينوزا، **الإتيقا**، القسم الثاني، القضية 39 مع التعليق الخاص بها). إن المعرفة، بوصفها نشاطًا مفكرًا فيه للنفس، هي أيضًا نشاطٌ خاص بالجسد الذي تعتبر هذه النفس هي فكرته.

يتبقى أن الجنس الثاني من المعرفة هو وحده القادر على أن يقود إلى الحقيقة. إنها معرفة عقلية، تتم بواسطة الترابط الاستنباطي، وعن طريق استعمال «المعاني المشتركة». وعلى نحو أدق، «فهذه الطريقة في استيعاب الأشياء» بواسطة الأفكار المتطابقة عن خصائصها هي ما يسميه سبينوزا ‹‹عقلًا›› ومعرفة من الجنس الثاني.

هكـذا فـإن العقـل ليـس ملكـةً، بـل هـو نشـاطُ النفـس التفكُّـري والمنهجـي. يتـم هـذا النشـاط بواسـطة معـانٍ كليـة وعـن طريـق التصـورات (المفاهيـم)؛ أي مـن خـلال الترابـط الاسـتنباطي والمجرد للأفـكار المتطابقـة والمعـترف بهـا، مقدَّمًـا، بمـا هـي كذلـك وبمـا هي أفـكار صحيحة تكـون معيـار ذاتها الخـاص بهـا (*index sui*).

لنـشر إلى أن هـذا الجنـس الثـاني مـن المعرفة هو الذي يُفَعِّلُهُ سـبينوزا في كتابه ‹‹الإتيقـا›› لكي يُقنِعَ القـارئ بواسـطة قـوة البراهـين. بهـذه المعرفـة يمكنـه أن يقـوم بنقـد النزعـة الأمبريقيـة، وعـن طريقها أيضًـا يسـتطيع أن يضـع العلم الحـدسي ويحدده.

إن هـذا العلـم الحـدسي هـو فعلًا الجنـس الثالث من المعرفة، ومـن اللافت للنظـر أن يتم تحديده هنـا، في هـذا القسـم الثـاني مـن كتـاب ‹‹الإتيقا›› المُسَـخَّر للنفـس والمعرفة. وهـذا العلم الحـدسي «يتم مـن الفكـرة المتطابقـة للماهيـة الصوريـة لبعـض صفـات الإلـه إلى المعرفـة المتطابقـة بماهيـة الأشـياء» (سـبينوزا، **الإتيقـا**، القسـم الثـاني، القضيـة 40، التعليـق الثـاني). إن هـذا الجنس الثاني مـن المعرفة ليس اسـتيعابًا صوفيًّـا لواقـع خـارج العالَـم قـد يكـونُ هـو الإلـه، بل إنـه، على نحو أبسـط وبـشري أكثر، هو هـذا الاسـتيعاب الحـدسي: العلـم الحدسي هو الاسـتيعاب الفكـري (والمباشر) للعلاقة بـين صفة شيء ما وماهيتـه؛ أي بـين صفـة لامتناهيـة للطبيعـة وحـالٌ mode جزئي خاص بهـذه الصفة.

يتضـح أن الجنـس الثلـث مـن المعرفـة ليـس صوفيـةً ولا سرًّا؛ إنـه الفهـم الفكـري والمبـاشر للرابط بـين الحقائـق الجزئيـة والمظهـر الخـاص بالطبيعـة اللامتناهيـة الذي يؤسسـها، سـواء تعلق الأمـر توالـيًّا بالأشـياء أو بالأفكار.

ألَّا يَكُـونَ العلـم الحـدسي «معرفـة» صوفيـة؛ فهـذا لا يمنـع مـن أن يكـون لـه، في كتـاب ‹‹الإتيقا››، مكانـة ودورًا متميزيـن.

فعـلًا، فكتـاب ‹‹الإتيقـا›› برمتـه يقـود القـارء صـوب هـذا النـوع مـن المعرفة. فهـذا العلـم المعرفي هـو، بالفعـل، إدراكٌ للمحايثـة وللفكـر البديهـي لإدمـاج الحقائـق الجزئيـة والمحـدودة في مظهـر مـن المظاهـر اللامتناهيـة للطبيعـة اللامتناهيـة. يقتـضي هـذا العلـم إذن التحـرر مـن كل أسـاطير التعـالي وحريـة الاختيـار. إذا كان العلـم الحـدسي يُحـرّر النفـس مـن الخيـال ومـن العبوديـة؛ فلأن هـذا العلم، أي هـذه المعرفـة، هـو قبـل كل شيء علـمٌ نابـعٌ مـن الجنـس الثـاني مـن المعرفـة وليـس مـن الجنـس الأول منهـا (سـبينوزا، **الإتيقـا**، القسـم الخامـس، القضيـة 28). لا يمكـن للمعرفـة الأمبريقيـة أن تنتج إلا الخيـال الوهمـي وخطـأ الأفـكار المبتـورة؛ والمعرفـة العقلية هـي وحدة قـادرة على أن تخلق نسـقًا من الأفـكار المتطابقـة المتعلقـة بِبِنْيَـاتِ ‹‹الوجود›› (الجوهـر والصفات والأحوال في القسـم الأول من كتاب

‹‹الإتيقـا››)، وفقـط انطلاقًـا مـن هـذه المعرفـة العقلانيـة بوحـدة الوجـود (الطبيعـة) يمكـن أن ينبثـق الاسـتيعاب الحـدسي للرابـط بـين الأشـياء الجزئيـة والطبيعـة اللامتناهية.

انطلاقًا من هنا، فإن فهمَ العالَم سيتحول وسيغدو حيويًّا.

يقـول سـبينوزا: «عـن هـذا الجنس مـن المعرفة يَتَوَلَّـدُ لَدَى النَّفْـسِ أَكبَرُ ارتيـاح يُمْكِنُ أَنْ يُتَـاحَ لَهَا» (سـبينوزا، **الإتيقـا**، القسـم الخامـس، القضيـة 27). فعـن هـذا العلم الحـدسي يتولَّدُ فعـلًا الحب العقلي للإلـه، ومـن ثـم الغبطـة والحرية، ويتولَّـدُ عنه إذن الشـعور بالأبدية.

يبـدو أن الحكمـة السـبينوزية برمتهـا هـي ثمـرة لهـذا العلـم الحـدسي؛ مـا دام هـو وحـده يُقنعنـا «مـن داخـل» وحـدة العالَـم، ويقودنـا إلى أسـمى فـرح: «هكـذا، فبقـدر تفوقنـا في هـذا الجنـس مـن المعرفـة؛ يكـون وعينـا بذاتنـا وبالإلـه أفضـل؛ أي أننـا نكـون أكـثر كـمالًا وسـعادة» (سـبينوزا، **الإتيقـا**، القسـم الخامـس، القضيـة 31، التعليـق).

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com